معلم مصري ينظر في

تقرير هادو[1]

واصلاح التعليم في انكلترا

لعلي حسن الهاكيم

عُرف عن الانكليز عدم النزوع الى التغيير المفاجيء العنيف ، وها هي الثورات السياسية والاقتصادية تعصف بأنحاء العالم ، فلم ترحم قوماً ولم تسه عن امة الا وعبثت بها ما عدا انكلترا . فهي الامة الهادئة العملية ، لا تزال أمنع من أن تستهويها فكرة او نظرية ، ولا تحترم الا الامر الواقع والتجربة الناطقة . فاذا أخذت أي ناحية من نواحي حياتها السياسية والاجتماعية فلن تعثر الا على مرن يطيء وتعديل فوق تعديل . وكما يميل الانكليز الى التريث في الاخذ بالآراء الحديثة حتى يستبينوا قيمتها فانهم اذا ما أخذوا بها كانت يقيناً وديناً ، اذ يضعون قوتهم كلها في دعمها ولا يتراجعون قبل تحقيقها

لذلك لم يكن عجيباً أن ينبت هذا المجتمع الناضج اقوم الآراء وامتن الحجج . أليست انكلترا خالقة النظام النيابي ومنشئة العناية بالأبدان والألعاب ومبتكرة حركة الكشافة ؟ وانك اذا احتككت بأفرادهم في مجتمعاتهم او اطلعت على منتجاتهم العقلية وجدت فارقاً جلياً بين تفكيرهم وتفكير غيرهم من الامم حتى البارزة منها . وقد تجد في الصحف اللاتينية كالايطالية والفرنسية حماسة ولهيباً في اسلوب رشيق جذاب وفي الالمانية غزارة في العلم وتعمقاً في الفكرة . اما الانكليزية فهي لا تتعمق ولا تصخب وانما تبسط الحقائق المحسوسة بأسلوب عملي خالٍ من الاسهاب والتجميل . ومن هنا كان الأدب الانكليزي غير متذوق كثيراً لدى غيرهم من الامم الحالية التي لا يعجبها الا السطحي الضحضاح من الادب الذي لا يحرك الا الغرائز الفطرية . وهذا لون من ألوان التصمم العقلي

ومن هنا كانت للآراء الانكليزية في مختلف ميادين النشاط العقلي قدر ممتاز بين خاصة المفكرين فاذا ما صدر الرأي في صحيفة او مجلة تناولته اسلاك البرق بالاهتمام لما عرف عن هؤلاء القوم من الأناة والتريث ووزن الحقائق . لذلك أحث قومي على التزود من الآراء الانكليزية الناضجة في مختلف الشؤون

وكرجل مرب يدهشني حقاً ان يصدر في عام ١٩٣١ تقرير لجنة — برآسة السير هادو Sir Hadow — كلفتها الحكومة فحص حالة التعليم العام بانكلترا ، ثم لا نقرأ كلمة عنه في صحفنا . فبعد جلسات كثيرة عقدتها اللجنة واتصال مباشر بكبار علماء النفس والتشريح ورجال الاعمال اصدرت اللجنة تقريرين طافحين بزبد الآراء النظرية والعملية . وقد اخذت الحكومة فعلاً بجل ما جاء في التقريرين حتى اصبحت روح التقريرين هي المتسلطة في ميدان التربية الانكليزية

---

(١) Hadow Report

ولضيق وقتي لم افرغ من قراءة التقرير الخاص بالتعليم الابتدائي الا منذ بضعة شهور ، فاذا به كنز قيم لا يقتصر على آراء أئمة المربين بل يتناول آراء كبار المفكرين وعلماء النفس والتشريح ورجال الاعمال الذين استطلعت اللجنة آراءهم في سبيل اصلاح التعليم العام . واني لا ارى مندوحة عن جلاء نقطة هامة في هذا الصدد . وذلك ان التقرير خاص بالمدارس الابتدائية الانكليزية ، وفي انكلترا وفي سائر بلاد العالم لا نجد مرحلة في التعليم العام اسمها التعليم الاولي واخرى اسمها التعليم الابتدائي كما هو الحال في مصر مع الاسف المؤبل هناك مرحلة واحدة تسمى في بلد « ابتدائية » وفي آخره « اولية » وفي ذلك ضمان لوحدة الامة وعدم التحطيم بين طبقاتها وألوان حياتها كما في مصر

ومع الفارق العظيم بين مستوى التعليم في انكلترا وبينه في مصر فانك تجد مقابلات كثيرة بين الحالين في كثير من المواضع تستعرض نفس المشكلات المصرية كمشكلة تعليم اللغتين الثانيتين في ويلز وهي تقابل مشكلة اللغات الاجنبية هنا . ومما يزيد في قيمة هذا التقرير استناده الى ملحقين علميين نفيسين في ذيله يشملان أحدث وأقوم ما وصلت اليه الحقائق العلمية بشأن الطفل وطبيعته . فالملحق الأول خاص بجسم الطفل من الولادة الى سن الانتهاء من التعليم الابتدائي من الوجهة التشريحية والفسيولوجية ، والملحق الثاني يتناول خصائصه النفسية . ولما كانت مهمة اللجنة البحث في مناهج الدراسة وخاصة ما اتصل منها بالاوساط الريفية ، كانت تلك الآراء عظيمة القدر للباحثين من المصريين

يقول التقرير في المقدمة « ان المشكلات عديدة وخطيرة »

فالمدرسة محيط طبيعي وعمل تربية للعقل وجمعية روحية في وقت واحد

ويعجبني من التقرير انهُ بعيد عن الرجعية بعده عن الثورية ، اذ لم يغفل أحدث الأساليب في التربية ، وأخذ منها الكثير الذي طبقته الحكومة الانكليزية ومجالسها المحلية

واني أحثُّ اخواني المدرسين ، وبصفة خاصة القائمين بشؤون التعليم في مصر كباراً وصغاراً على المزيد من هذا التقرير النافع إذ انهُ كما قلت خلاصة دسمة ثمينة للنظريات العلمية ونتائج التطبيقات العملية لها كما قطعت به التجربة والاختبار . فهو لذلك يغني من لا يتسع له الوقت عن قراءة عشرات من الكتب . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان في استعراض مشكلات التربية كما استعرضها واضعو التقرير من جهابذة ، خير مرشد لنا في معالجة مشكلاتنا وبالاخص في الطريقة العلمية النافذة التي تتطلبها مثل هذه المعالجة

يبدأ التقرير بمقدمة عن مهمة اللجنة ، يتلوها استعراض تاريخي لمشكلة التعليم الابتدائي بانكلترا وتطوراتها ، ثم فصل علمي ممتع عن نموّ جسم الطفل الى سن ١١ آخذاً بأحدث الآراء كرأي القائل بنموّ الطفل في مراحل محدودة على نوعين ارتقاء ثم انفراد ثم ارتقاء وهكذا . ومن اهم ما جاء في هذا البحث ان مرحلة التعليم الابتدائي تتفق مع مرحلة ارتقاء (filling out) ويسميه البحث « تمكيناً » أي (Consolidation) تستطيع فيه التربية الخفة ان تصلح العيوب الجسمانية

واعداد الجسم للمرحلة الانفرادية الثالثة في البلوغ عند ما يكثر استعداده للامراض المعدية الخطيرة كما أثبتت الابحاث الفسيولوجية الاخيرة . ان عظام الكتف والحوض لا يتم نموها ولا تحكم مفاصلها الا في سن ١٦ سنة تقريباً وبذلك يتبين الخطر من اجهاد الجسم في حركات عنيفة قبل بلوغ هذه السن. وقد اثبتت الابحاث أيضاً ضرورة الراحة الجسمانية وبخاصة بعد تناول الطعام ؛ وكيف ان الطفل يجتمع بالغريزة الى جلسة التربع (Squatting)

ومما هو جدير بالذكر ان واضعي التقرير لم يروا ، في المواضع التي لم يأت العلم فيها بجديد ، جانب الصراحة باقرار العجز عن المعرفة ، كتلك المفاجأة الهامة بالاقرار بعجز العلم الى الآن عن معرفة معظم التفصيلات عن المخ وأدوار نموه وعلاقته المحكمة بالاحوال النفسية والعقلية وحثه علماء التشريح والفسيولوجيا على توجيه عناية كبيرة خاصة الى هذه الناحية الرئيسية

ثم يلي فصل عن نمو عقل الصبي في نفس الفترة مع التعرض المستمر لناحية التربية التطبيقية applied وهو يأخذ اجمالاً بالرأي الحديث الذي يقول به الاستاذ Spearman وهو ان التفكير ادراك العلاقات . ويشيد بالتفكير الاستنباطي inductive فيقول بأنه اسهل للطفل من التفكير القياسي deductive . اي عكس ما هو مألوف . ثم يأتي فصل تنبيه عن الناحية الذوقية aesthetic والعاطفية في الطفل ثم بحث يتناول علاقة المحيط بالصبي ومن ذلك يخرج الى بحث عن التخرج في التعليم الابتدائي وعلاقته بالتعليم الاولي من جهة والتعليم الذي يتلوه من جهة اخرى ، ويحث التقرير على ضرورة التعاون والاتصال الدائم بين القائمين بالتعليم في هذه المراحل بعضهم ببعض ، ويقرر بأنه مع التسليم بضرورة جعلها مدارس منفصلة احتراماً لطبيعة النشء المتباينة عنها في الاخرى ، فان النمو المستمر والانسجام يتطلبان هذا الاتصال ويتلو ذلك فصل في توزيع التلاميذ على الفصول وادارة المدارس

ثم ينساب الى فصل ممتع جمع بين العلم والتجربة القيمة عن ضعاف العقول مقسماً اياهم الى طبقات متفاوتة في الضعف ويرى ضرورة وضع الضعاف في فرق ممزولة تحت عناية خاصة مبنية على دراسة للضعف العقلي من جانب القائمين بتدريسهم . ولم يكتف بذلك بل ابان اسباب ذلك الضعف وضرورة عزل الطلبة من مبدأ الدراسة وبذلك يقتصد مجهود عظيم مع كل من الضعفاء والعاديين ويحسن توجيه الصبيان الى المهنة المقبلة . ويرى التقرير عدم الاقتصار على تخصيص فرق خاصة بل مدارس منفصلة للمصابين في الضعف العقلي اي الذين يقربون من البله idiocy

ثم يتلو ذلك فصل عن المنهج ثم فصل عن توزيع العمل واعداد المدرسين ثم فصل عن بناء المدارس واثاثها ووسائل الايضاح وبحث في الاخذ بالوسائل الحديثة من سينما وراديو الخ

ويلي ذلك فصل يمتع في الامتحانات وفيه يأخذ التقرير بأحدث الآراء من حيث الاخذ باختبار الكفاءة والمقدرة لا المعلومات Capacities not attainments وان يكون النقل على هذا الاساس . ويسمح بأن يعاد النظر بين حين وحين في حالة التلاميذ كأن ينقل تلميذ سبق تقرير اعادته . ونص

التقرير على التسهيل في الامتحانات كأن يقصر اختبار الدخول في المدارس الثانوية على اللغة والحساب (هذا رأي المستر مان في تقريره المتمم عن التعليم في مصر) وبذلك يجتنب ذلك الارهاق وتلك القدسية الصناعية التي أسبغت على الامتحانات العامة . وقد تعرض لاختبارات الذكاء الجمعية group tests فوصل الى انه مع التعليم بنائتها لا يرى الاقتصار على الارتكان عليها

وقد أتى بشيء جديد حقاً عن الاختبارات الشفوية ذلك ان الاختبارات المألوفة التي يتبه المختبر فيها مع الطالب كما تسوقه خواطره لا فائدة منها ، بل يجب ان يكون الشفهي اختباراً أعدّت اسئلته وتواليه . ويرى فائدة كبيرة في الاختبارات الفردية للذكاء كوسيلة منتجة لتوجيه الطالب في حياته الدراسية . وبذلك قضى هذا التقرير قطعيًّا على الامتحانات كما هي شائعة ويرى ان يستبدل بها في تقرير مستوى المدارس والتلاميذ تفتيش دقيق نزيه . ثم يتلو ذلك تقرير تفصيلي عن مواد المنهج مادة مادة وهي صفحات جدير بكل معلم ان يقرأها بعناية لانها زبدة قيمة لاحدث الابحاث كما سبق ان بينت . وعلى ذكرها يحسن ان نبين ان المناهج في انكلترا ليست موحدة كما في مصر . اذ لكل مجلس مقاطعة بل لكل مدرسة ان تضع منهجها غير مقيدة الا بحدود عامة

ويأخذ التقرير في المناهج بكثير من النظريات والطرق الحديثة ويدمجها بدون ارتجاج الأنظمة القائمة . ولما كان هذا الفصل ممتعاً في التفصيل لا أرى لبسطه محلاً هنا ولعلي اعرض له في فرصة أخرى وانما لا يفوتني التنويه بما اجمعت عليه المذاهب الحديثة وما قرره التقرير من ضرورة الاخذ بالعمل قبل المعرفة action . ولذلك يقرر ضرورة الاتصال بالحياة وشئونها في كل شيء والترابط بين المواد بعضها ببعض في ذلك الاتصال ويعلق شأناً عظيماً بالأعمال اليدوية كدروس الاشغال والرسم وتربية النباتات والحيوانات وعمل نماذج لمختلف المشاهدات من اعمال وصناعات وسائر ما يتصل بالحياة العملية حتى يشب الصبي مندمجاً في بيئته ، نافعاً لمجتمعه ، خبيراً بالحياة ، بعيداً عن أوهام النظريات والمعلومات التي تتطاير بمجرد فوات الامتحان

وهنا يسترعي نظرنا عيب رئيسي لا يزال قائماً في مصر . هو ان الطالب في مدارسنا الابتدائية يُوجَّه من قِبَل عدة مدرسين كلٌّ يوجهه في ناحية معينة اسمها علم . فهذا يدرسه العربية وآخر الانجليزية وآخر الحساب وهكذا ، وبذلك يُقضى على وحدة الملاحظة والتوجيه وما يتبع ذلك من ربط وانسجام بين سائر المواد ويتسلط على الناشيء اكبار واعظام للمعلومات فيشحن حافظته بحقائق كل مادة . ويسمح الامر حشواً لا تربية حقة

هذا تنويه بسيط بذلك التقرير النفيس الذي لم لحظ بأشارة ولو بسيطة اليه في مجلة او صحيفة علمية او ادبية !! واني اطلب الى احرار المصريين عامة والى كبار القائمين بالتعليم خاصة أن يقرأوه وينعموا النظر فيه . ولعل وزارة المعارف تعنى بترجمته وتوزيعه على المعاهد . ففيه فائدة لا تقدر لاستخلاصه زبدة الحقائق العلمية واختياراته على نظرات ثاقبة عملية في احدث الطرق والاساليب في التربية